بسم الله الرحمن الرحيم

مجالس شرح تفسير الجلالين

الدرس الخامس

مقدمة الإمام السيوطي، وسورة البقرة: من أولها إلى قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الخميس ١٦ جمادى الآخرة ١٤٤٨هـ، الموافق ٢٦ نوفمبر ٢٠٢٦م

ألقاه فضيلة

الدكتور علي سنوسي

تنبيه: انقطع الصوت في بث هذا المجلس نحو خمس دقائق (١١:٥٦–١٧:٢٨) بعد الكلام في «أل» في ﴿الْكِتَابُ﴾، فلم يُسمع ما قاله الشيخ فيها، ثم استأنف من ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ وموضع ذلك معلَّمٌ في النص.

تفريغ الدرس الصوتي مرتبًا تحت عناوين، والكلام كلام الشيخ؛ أما العناوين فمن وضع المفرّغ، وأما نص المتن المؤطَّر فمنقول من تفسير الجلالين.

تمهيد:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد وصلنا في تفسير الإمامين الجليلين إلى سورة البقرة.

يقول الإمام الجلال في تفسيره لسورة البقرة، بعد أن أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ليس المحلي، هذا الإمام السيوطي رحمه الله؛ الآن بدأ الإمام السيوطي يفسر النصف الأول من القرآن، وهو من سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء. فقال رحمه الله تعالى، قدّم بمقدمة نقرؤها سريعًا.

أولًا: مقدمة الإمام السيوطي:

> **قال الجلال السيوطي رحمه الله:** بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله حمدًا موافيًا لنعمه، مكافئًا لمزيده، والصلاة والسلام على محمدٍ وآله وصحبه وجنوده. هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم الذي ألّفه الإمام العلامة المحقق جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي رحمه الله، وتتميم ما فاته، وهو من أول سورة البقرة إلى آخر الإسراء، بتتمةٍ على نمطه: من ذكر ما يُفهم به كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يُحتاج إليه، وتنبيهٍ على القراءات المختلفة المشهورة، على وجهٍ لطيف وتعبيرٍ وجيز، وترك التطويل بذكر أقوالٍ غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية. والله أسأل النفع به في الدنيا، وأحسن الجزاء عليه في العقبى، بمنّه وكرمه.

هذه مقدمة الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في تفسيره للجزء الأول، أو النصف الأول، من القرآن الكريم.

ثانيًا: قوله «سورة البقرة مدنية» وقوله تعالى ﴿الٓمٓ﴾:

> **قال الجلال السيوطي رحمه الله:** سورة البقرة مدنية، مائتان وستٌّ أو سبعٌ وثمانون آية. بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿الٓمٓ﴾ الله أعلم بمراده بذلك.

◆ عدد آيات السورة:

ثم قال رحمه الله: بسم الله الرحمن الرحيم، قال: «**سورة البقرة مدنية**»، آياتها «**مائتان وست أو سبع وثمانون آية**». هناك خلافٌ بين علماء عدّ الآي في هذه المسألة، وهذا أمرٌ معروف ومشهور.

◆ الحروف المقطعة في أوائل السور:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الٓمٓ﴾. هذه الحروف التي افتُتحت بها بعض السور تسمى **الحروف المقطعة في أوائل السور**. واختلف المفسرون فيها اختلافًا كثيرًا، وهو أيضًا لا نعرّج عليه؛ لأن المؤلف لم يذكره، ونحن مقيَّدون بكلام الإمامين الجليلين.

﴿الٓمٓ﴾: ما معنى ﴿الٓمٓ﴾؟ المؤلف يقول: «**الله أعلم بمراده بذلك**»؛ بمعنى هذه الحروف المقطعة التي تُفتتح بها بعض السور، كـ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ و﴿الٓمٓر﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حٰمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ و﴿صٓ﴾، هذه الحروف اختلفوا اختلافًا كثيرًا في الكلام عنها؛ لكن أفضل الأقوال فيها أن نقول إنها، كما قال المؤلف، مما استأثر الله عز وجل بعلمه.

◆ من فوائدها: التحدي:

ولكن لها فائدةٌ بلا شك. ومما ذكروه فيما يتعلق بهذه الحروف قالوا: إنها ذُكرت **للتحدي**، أي لتحدي العرب الذين نزل القرآن بلغتهم. تحدّاهم القرآن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سورٍ من مثله، أو بسورةٍ من مثله، فعجزوا؛ مع أن القرآن ليس من لغةٍ أخرى، وإنما هو من لغتهم، المؤلفة من ألف لام ميم، وألف لام را، وكاف ها يا، ونون، وصاد، إلى آخره.

بمعنى: إنكم أيها العرب الذين تعاندون، تحديناكم بأن تأتوا بمثل هذا القرآن فلم تستطيعوا، ولا بعشر سور، ولا بسورةٍ واحدة؛ مع أنه ليس من لغةٍ أخرى، وإنما هو مكوَّنٌ من لغتكم التي هذه حروفها. وهذا كلامٌ جميل.

المهم: المؤلف قال: «الله أعلم بمراده» بـ﴿الٓمٓ﴾ وما أشبه ذلك من الحروف التي في أوائل السور.

ثالثًا: قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي هذا ﴿الْكِتَابُ﴾ الذي يقرؤه محمدٌ ﷺ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شك ﴿فِيهِ﴾ أنه من عند الله، وجملة النفي خبرٌ مبتدؤه «ذلك»، والإشارة به للتعظيم.

◆ مراتب أسماء الإشارة:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. «ذلك»: أنتم تعلمون أن أسماء الإشارة لها مراتب: مرتبةٌ قُربى ومرتبةٌ بُعدى. ومنهم من قال: إن مراتب أسماء الإشارة ثلاث: مرتبةٌ قربى، ومرتبةٌ وسطى، ومرتبةٌ بعدى.

- **المرتبة القُربَى**: يشار إليها بـ«ذا» أو «هذا»: «ها» للتنبيه، و«ذا» اسم إشارةٍ للقريب.
- **المرتبة الوسطى**: «ذاك» اسم إشارةٍ للأوسط، إذا كان الذي تشير إليه ليس بعيدًا وليس قريبًا، وإنما هو في مرتبةٍ وسط؛ تقول: ذاك الرجل.
- **المرتبة البُعْدَى**: «ذلك» باللام والكاف، إذا كان المشار إليه بعيدًا منك.

◆ لماذا أشير إلى القرآن بـ«ذلك»؟

إذن هذه هي المراتب. القرآن ليس بعيدًا منا؛ القرآن نحن نقرؤه، وهو أُنزل على النبي عليه الصلاة والسلام، وخوطب به النبي ﷺ، وخوطب به الصحابة؛ بمعنى هو قريب. القرآن قريب، فكيف يشار إليه باسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد؟

ولذلك قال لك المؤلف... هذه مسألةٌ بلاغية، وهي **السر في ترك الأصل إلى غيره**. مدار البلاغة على أن الشيء الأصلي يُترك، يُعدل عنه إلى غيره، ولا يكون ذلك إلا لسبب، لنكتةٍ بلاغية، والحال تقتضي ذلك. والحديث الآن عن القرآن، والقرآن شيءٌ عظيم؛ لأنه كلام الله عز وجل، ولذلك هو عظيم، فأشير إليه بما يشار به إلى البعيد.

ولذلك المؤلف قال: **«ذلك» أي «هذا»**؛ بمعنى أن «ذلك»، وإن كان يشار به إلى البعيد، فهو هنا أشير به إلى القريب.

> **منهج الشيخ في الدرس**: وهذا المؤلف، كما قلت لكم، كتابه هذا يحتاج إلى أن تنتبه إلى عباراته حتى تستفيد منه، المؤلفان الجليلان؛ وهو لم يقل لك... وسينبّه على هذا فيما بعد.

لماذا أشير بـ«ذلك» مع أن «ذلك» لا يشار به إلا إلى البعيد، والقرآن قريب؟ ولذلك قال: «أي هذا»؛ بمعنى أن «ذلك» وإن كان للبعيد فهو هنا أشير به إلى القريب. ما السر في ذلك؟ السر في ذلك **الدلالة على بُعد القرآن مرتبةً**. القرآن، وإن كان قريبًا منك حقيقةً، فهو في الواقع بعيد المرتبة؛ فبُعد مرتبته وعظمته المتناهية نُزِّلت منزلة البعد الحسي. البعد هنا معنوي، لكن نُزِّل ذلك منزلة البعد الحسي، فأشير بما يشار به إلى البعيد إلى القرآن الذي هو قريب. إذن السر هو الدلالة على بعد مرتبة القرآن الكريم.

◆ «أل» في ﴿الْكِتَابُ﴾ للعهد:

ولذلك قال: «أي هذا الكتاب». ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾: «أل» في «الكتاب» **للعهد**، أي الكتاب المعهود، وهو القرآن. طبعًا «الكتاب» إذا جعلت «أل» فيه جنسية فإنه يشمل القرآن، ويشمل التوراة، ويشمل الإنجيل؛ ولذلك المؤلف ماذا قال؟ «**الكتاب الذي يقرؤه محمد**»، يريد بذلك أن يُخرج كتب الله عز وجل الأخرى. إذن «أل» في «الكتاب» هذه ليست للجنس والاستغراق، وإنما هي للعهد، أي للشيء المعهود، وهو القرآن. ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي يقرؤه محمد، وليس الذي أنزل على موسى... ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [انقطاع في الصوت].

◆ جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر:

طيب، نواصل يا جماعة. نعود إلى الحديث؛ يقول المؤلف رحمه الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي يقرؤه محمد، ﴿لَا رَيْبَ﴾: «**لا شك فيه أنه من عند الله**»، «**وجملة النفي خبر**».

أنت تعلم أن المبتدأ يكون مفردًا، والخبر يكون مفردًا ويكون جملة. فقولك: «زيدٌ عالمٌ» خبرٌ مفرد، وقولك: «زيدٌ أبوه عالمٌ»: «أبوه» مبتدأ، و«عالم» خبر، والجملة خبر «زيد». المهم أن خبر المبتدأ يكون مفردًا، ويكون جملةً اسمية وجملةً فعلية.

المؤلف قال: «جملة النفي»: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، «لا» نافيةٌ للجنس، و«ريب» اسمها، و«فيه» جارٌّ ومجرورٌ الخبر؛ هذه الجملة في محل رفعٍ خبرٌ للمبتدأ. ما هو المبتدأ؟ قال لك: «**مبتدؤه ذلك**»، في أول السورة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

◆ إعراب ﴿الْكِتَابُ﴾ في ظاهر صنيع المؤلف:

المؤلف لم يتعرض لإعراب «الكتاب»، ولكن ظاهر صنيعه أن «الكتاب» بدلٌ من «ذلك»، وليس خبرًا. من المفسرين من قال: «ذلك» مبتدأ و«الكتاب» خبر؛ لكن المؤلف قال: «ذلك» مبتدأ، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه جملة النفي خبر. ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾: «الكتاب» بدلٌ من «ذلك»، وجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر. قال: «وجملة النفي خبرٌ مبتدؤه ذلك».

◆ السر البلاغي في الإشارة بـ«ذلك»:

ثم ذكر السر البلاغي في الإشارة بـ«ذلك»، والعدول عن «هذا» إلى «ذلك»؛ قال: «**والإشارة به**»، أي بـ«ذلك» الذي يشار به للبعيد، «**للتعظيم**»؛ أي للدلالة على عظمة هذا القرآن، وعلى أنه بعيد المرتبة بسبب هذه

العظمة، فنُزِّلت هذه العظمة المعنوية منزلة البعد الحسي. ولذلك ممكن تشير إلى هذه الكلمة، أشِّر عليها: السبب البلاغي، أو النكتة البلاغية، في الإشارة بـ«ذلك»؛ قال: «والإشارة به للتعظيم».

رابعًا: قوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿هُدًى﴾ خبرٌ ثانٍ، أي هادٍ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ لاتقائهم بذلك النار.

◆ ﴿هُدًى﴾ خبرٌ ثانٍ، وهو مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾: جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرٌ أول، و﴿هُدًى﴾ **خبرٌ ثانٍ**. ولذلك قلنا: صنيع المفسر يدل على أن «الكتاب» ليس خبرًا، وإنما هو بدل؛ بدليل أنه قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو خبرٌ أول، و﴿هُدًى﴾ خبرٌ ثانٍ.

و﴿هُدًى﴾ يا جماعة **مصدر**؛ قال: «هدى خبر ثانٍ»، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل: «**هدًى» أي «هادٍ»**. إذا قلت لك: هذا يهدي، فهو هادٍ، و«هادٍ» اسم فاعل. إذن هنا المصدر بمعنى اسم الفاعل.

المصدر يأتي بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول؛ كـ«الخلق» بمعنى المخلوق: مصدرٌ بمعنى المخلوق، أي بمعنى اسم المفعول. و«هدًى» بمعنى «هادٍ»؛ أي أنه جاء الخبر مصدرًا، ولكنه يراد به اسم الفاعل. قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: هذا الكتاب هادٍ للمتقين.

◆ معنى الهداية هنا، ولماذا خُصّ بها المتقون:

ما معنى الهداية هنا؟ الهداية هنا معناها **الدلالة والإرشاد والبيان**. وإذا كانت الهداية يراد بها الدلالة والإرشاد والبيان، فهي أمرٌ مشتركٌ فيه بين الكفار وبين المسلمين الصالحين، المتقين وغير المتقين؛ فلماذا خُصّ المتقون بأن القرآن هادٍ لهم؟ بمعنى أنه ليس هاديًا لغيرهم، هذا مفهوم هذا.

معنى هذا: أن القرآن، وإن كان هدًى لكل البشرية، المسلم وغير المسلم، إلا أنه لا يستفيد منه إلا المتقون. غير المتقين، الذين علم الله أنهم لا يتقون، ولا يُسلمون، ولا يؤمنون، هؤلاء وإن كان القرآن دلالةً لهم، وكان إرشادًا لهم، فهم لا يستفيدون منه، فنُزِّلوا منزلة غير الذي يهديه القرآن، أي يدلّه القرآن، لعدم استفادتهم منه؛ والذين يستفيدون منه المتقون، فجُعل القرآن كأنه هادٍ لهم هم فقط، وليس هاديًا لغيرهم. ولذلك قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

◆ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مجازٌ مرسل باعتبار ما يكون:

هنا أيضًا مسألةٌ بلاغية، وهي أن المتقين مهتدون، لا يوصفون بأنهم متقون إلا وهم مهتدون؛ فكيف يكون القرآن هدًى للمهتدين، وهم مهتدون؟ فما معنى هدايته لهم وهم مهتدون؟

فأشار المؤلف إلى أن «المتقين» هنا **مجازٌ مرسل، علاقته اعتبار ما يكون**، وبعضهم يسميه **مجاز الأَوْل**، أي باعتبار ما يؤول إليه الأمر؛ بمعنى أنهم عندما جاء القرآن لدلالتهم ليسوا متقين، ولكنهم سيصيرون، سيؤولون، إلى كونهم متقين. وهذا من علاقات المجاز المرسل، وهو اعتبار ما يكون.

كقول ذلك السجين الذي دخل مع يوسف السجن، قال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾، والآخر قال: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، أي باعتبار ما يكون؛ هي الآن ليست خمرًا، لكن سيؤول ذلك الأمر إلى كونه خمرًا. إذن هذا أيضًا مجاز، علاقته اعتبار ما يكون.

ولذلك قال المؤلف، إشارةً إلى هذا المجاز: «**أي الصائرين إلى التقوى**»؛ هم الآن، لما جاء القرآن يبيّن لهم ويرشدهم ويهديهم، ليسوا متصفين بالتقوى، ولكنهم سيؤولون إلى التقوى، فسُمّوا بالمتقين باعتبار الحالة اللاحقة التي ستأتي بعد ذلك.

◆ معنى التقوى:

ولذا قال: «للمتقين: الصائرين إلى التقوى». صائرين إلى التقوى بماذا؟ «**بامتثال الأوامر واجتناب النواهي**»: يمتثلون أوامر الله عز وجل، ويجتنبون النواهي. وسُمّي المتقون متقين «**لاتقائهم بذلك**»، أي بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، «**النار**». إذا امتثل المتقي الأوامر واجتنب النواهي فهو بذلك جعل بينه وبين النار وقاية.

ولذلك **التقوى معناها في اللغة: أن تجعل بينك وبين الشيء المحذور وقاية**. ولذا قال لك المؤلف: «لاتقائهم بذلك»، أي بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، «النار»؛ أي لأنهم يتقون بذلك، أي بالامتثال والاجتناب، النار.

خامسًا: قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يأتون بها بحقوقها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله.

◆ الإيمان هنا بمعناه اللغوي، و«الغيب» مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: الإيمان هنا يراد به **المعنى اللغوي، وهو التصديق**، بدليل «بالغيب»: الذين يؤمنون، أي يصدّقون، بالغيب. «**الغيب» أيضًا مصدرٌ يراد به اسم الفاعل**؛ أي الذين يؤمنون بالغائب، بالشيء الغائب عنهم. ولذلك المؤلف قال: «**بما غاب عنهم**»، أي بالذي هو غائبٌ عنهم؛ الذين يؤمنون بغير المشاهَد، يؤمنون ويصدّقون بشيءٍ لا يشاهدونه، بل هو غائبٌ عنهم.

◆ «من» البيانية في قوله «من البعث والجنة والنار»:

الذين يؤمنون: يصدّقون، بالغيب: بما غاب عنهم **من** البعث؛ «من» هذه **بيانية**، بيّنت «ما». «ما» هذه اسمٌ موصول، والاسم الموصول هنا مبهمٌ يحتاج إلى بيان؛ لأنه مطلق، ولذلك بيّن بالشيء الذي يراد منه، وهو: «بما غاب عنهم من البعث».

البعث هذا أمرٌ غائب، يكون في المستقبل، لم يشاهده أحد؛ والجنة كذلك غيب، والنار غيب، والصراط غيب، والحساب والحشر، هذه كلها غيب. وهؤلاء يؤمنون به؛ لأن الله أخبرهم بذلك، لما أخبرهم الله بهذه المغيبات آمنوا بها وصدّقوا بها، وصدّقوا ربهم الذي أخبرهم بذلك. ذُكر هذا الوصف، ومُدح به هنا المتقون: الذين يؤمنون، أي يصدّقون، بالغيب، أي بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار.

◆ ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: ليس كل مصلٍّ مقيمًا للصلاة:

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: انظر إلى التعبير القرآني، لم يقل: «ويصلّون»؛ لأن إطلاق الصلاة وحدها لا يغني عن قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ بمعنى أنه **ليس كل مصلٍّ مقيمًا للصلاة**. ولذلك المؤلف فسّر ذلك بقوله: «**أي يأتون بها بحقوقها**»؛ هذه إقامة الصلاة.

ليس كل مصلٍّ، كما قلنا، مقيمًا للصلاة؛ هناك مصلّون يُطلق عليهم أنهم مصلّون، ولكنهم في الحقيقة بعيدون عن الصلاة. الذين مُدحوا هنا، وذُكرت هذه الصفة مدحًا لهم، هم الذين يقيمونها، وليسوا مجرد مصلّين، وإنما يأتون بحقوقها: ابتداءً من شروطها التي قبلها كالطهارة، ومرورًا بأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها ومندوباتها إلى آخرها، وانتهاءً بما بعد السلام منها. هؤلاء هم الذين يأتون بحقوق الصلاة، هم الذين يُسمَّون، أو يُطلق عليهم، أنهم مقيمون للصلاة، وأن فعلهم هذا يسمى إقامة الصلاة.

ولذا قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يأتون بها بحقوقها التي أتى بها الشرع، من شروطٍ وأركانٍ وواجبات، إلى آخره.

◆ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: المال مال الله:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: انظر إلى التعبير القرآني العجيب؛ قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، ولم يقل: «ومن أموالهم»، ولم يُسند هذا الأمر إليهم، ولم يقل: «من ممتلكاتهم»، وإنما أسنده إليه سبحانه؛ بمعنى أن المال الذي عندك هذا ليس من شطارتك، هذا مال الله، وهو الذي أعطاك إياه، وأمرك بوضعه في المكان الفلاني، وأنت امتثلت أمره وأنفقته في الوجوه التي أُمرت بإنفاقه فيها.

ولذلك هذا التعبير العجيب تجده يتكرر في كثيرٍ من الآيات التي تذكر الإنفاق: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ فلم يقل: «من أموالهم»: نحن الذين أعطيناهم، وهذه الأموال لم يكتسبوها بجهدهم أو بشطارةٍ منهم، وإنما نحن رزقناهم؛ هذا الذي رزقناهم إياه وأعطيناهم إياه ينفقونه في وجوهه.

◆ إطلاق الإنفاق ليشمل الواجب وغير الواجب:

ينفقونه الإنفاق الواجب والإنفاق غير الواجب: **الواجب** كإخراج الزكاة، وكالنفقة على العيال والزوجات، والوالدين إن كانوا في حاجة؛ هذه كلها نفقاتٌ واجبة. **والنفقات غير الواجبة**: الصدقات على الفقراء والمساكين، الصدقات التطوعية. يفعلون كل ذلك؛ ولذلك أطلق الإنفاق، ولم يقل: «ومما رزقناهم ينفقون الإنفاق الواجب»، وإنما قال: ﴿يُنفِقُونَ﴾، ليدخل في ذلك الإنفاق الواجب والإنفاق غير الواجب.

◆ تقديم الجار والمجرور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للعناية والاهتمام:

وهناك أيضًا مسألةٌ بلاغية كذلك، هذه أيضًا من بلاغة القرآن، وهي **تقديم الجار والمجرور على متعلَّقه**. أصل الترتيب: «وينفقون مما رزقناهم»؛ «من» حرف جر، و«ما» في محل جرٍّ بـ«من»، والجار والمجرور متعلقٌ بـ﴿يُنفِقُونَ﴾. وكما سبق أن أشرنا: الأصل أن يأتي المتعلِّق بعد المتعلَّق، فلا يقدَّم عليه، فلا يُخالَف هذا الأصل بتقديمه عليه إلا لسببٍ بلاغي، والسبب هنا هو **العناية والاهتمام**.

> **قاعدة**: فهذه مسألةٌ مهمة، أول من أشار إليها الإمام سيبويه رحمه الله في «الكتاب»، الكتاب الكبير العظيم، وذكر ما معناه: أن العرب يقدّمون ما هو أهمّ عندهم، وما هم به أعنى؛ الجملة لها أجزاء، هناك جزءٌ عنايتهم منصبّةٌ إليه، يعني متجهةٌ إليه، هذا الذي يهتمون به يقدّمونه دائمًا على بقية أجزاء الكلام. وهذه فائدةٌ بلاغيةٌ

مهمة؛ العلماء بعد الإمام سيبويه جاؤوا فذكروا ذلك في كل كتب البلاغة: من أسرار ونكت تقديم ما حقه التأخير العنايةُ والاهتمام بذلك الشيء.

إذن أنت أيها القارئ للقرآن، عندما تقف عند هذه الآية وما أشبهها، وتفكر وتقول: لماذا قدّم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على ﴿يُنفِقُونَ﴾؟ فلما تتوقف تجد أن ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ قُدّم لأن القرآن اهتم بهذا الجانب؛ القرآن اهتم بكون هذا المال مما رزقهم الله عز وجل، وليس بجهدهم. يعني: انتبهوا أيها الناس، انتبهوا أيها الذين عندكم المال، أن هذا المال رزقُنا نحن؛ ولذلك ضعوه في المكان الذي أُمرتم بوضعه فيه، أنفقوه في الموضع الذي أُمرتم بإنفاقه فيه.

إذن تقديم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للعناية والاهتمام به، ولتنبيه صاحب المال على أن هذا المال رزقٌ من الله، والمال مال الله، أنفقه فيما أُمرت بإنفاقه فيه. هذا من الأسرار والنكت التي يقدَّم من أجلها ما حقه التأخير.

◆ قوله «في طاعة الله»:

ولذلك المؤلف قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي «أعطيناهم»، ﴿يُنفِقُونَ﴾ «في طاعة الله»: الواجبة، والمستحبة المندوبة؛ الواجبة كالزكاة والإنفاق الواجب، وغير الواجب كالصدقات التطوعية. ولذلك المؤلف قال: «في طاعة الله»، ليشمل الواجب وغير الواجب.

◆ حذف المنفَق عليه للدلالة على الشمول والعموم:

أيضًا من المسائل البلاغية هنا، وحقيقةً الكتاب مليءٌ بهذه الإشارات، هو لا يصرّح بها، ولكن إذا كنت تقرأ فأنت تستنبطها؛ وهنا المسألة البلاغية هي **حذف المفعول به**: المنفَق عليه، الذين يُنفَق عليهم؛ ينفقون على فلان، ينفقون على الوالدين، ينفقون على الفقراء؛ هذا أمرٌ بمنزلة المفعول به، وإن كان جارًّا ومجرورًا، حُذف **للدلالة على الشمول والعموم**؛ بمعنى يشمل هذا كله، الذي أشار إليه المؤلف بقوله: «في طاعة الله».

سادسًا: قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي التوراة والإنجيل وغيرهما ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون.

◆ الإيمان بالقرآن وبالكتب المنزلة قبله:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: لا زالت صفات المتقين مستمرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن: يصدّقون بالقرآن، ويصدّقون بالكتب التي أُنزلت قبلك: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من التوراة والإنجيل وغيرهما، كالزبور وصحف إبراهيم وموسى؛ هذه كلها أُنزلت قبل النبي عليه الصلاة والسلام. هؤلاء المتقون يؤمنون بالقرآن، ويؤمنون بالكتب المنزلة من الله عز وجل.

> **تنبيه:** يؤمنون بها قبل تحريفها؛ أما بعد أن حُرّفت، كهذا الزمان، التوراة حرّفها اليهود، والإنجيل حرّفه النصارى، فهذا المحرَّف ينبغي أن ننكره، وينبغي أن نُبعده من إيماننا؛ فإنما نؤمن بالصافي الذي أنزله الله عز وجل.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ «أي القرآن»، ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ «أي التوراة والإنجيل وغيرهما». ولا زالت الصفات مستمرة: وهم يوقنون بالآخرة.

◆ تقديم ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ للاهتمام بها:

قال رحمه الله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ أيضًا هنا قدّم الجار والمجرور، وحقه التأخير. أصل الترتيب: «وهم يوقنون بالآخرة»، كذلك قدّم ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ **للاهتمام والعناية به**، وبأن هذا اليوم يومٌ عظيم، وينبغي أن يكون في حسبانكم أيها الناس، أيها المتقون، وينبغي أن تهتموا به؛ ولذلك قدّم: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

◆ معنى الإيقان:

والإيقان هو العلم، وفسّره في نسخٍ أخرى بـ«**يعلمون**». الإيقان هو **العلم الذي ينشأ عن الفكر والاستدلال، وذكر الأدلة والبراهين**؛ إذن هم يوقنون ويعلمون علمًا يقينيًّا، ويعترفون باليوم الآخر. ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي يعلمون علمًا يقينيًّا.

سابعًا: قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾:

> **قال الجلال السيوطي رحمه الله:** ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالجنة، الناجون من النار.

◆ التعبير بـ«على» الدالة على الاستعلاء:

هؤلاء المتقون الذين هذه صفاتهم ذُكرت نتيجة عملهم، وذُكر ثوابهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ثمرة فعلهم ماذا؟ أنهم على هدى، على هدايةٍ من الله عز وجل.

انظر إلى التعبير القرآني البليغ: عبّر بـ«**على» التي هي للاستعلاء**؛ فكأن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات جُعلت الهداية تحتهم، وهم علوا عليها وتمكّنوا منها؛ لأن الراكب مثلًا إذا ركب على دابته وعلا عليها فإنه يستقر فيها، كذلك الهداية، لكونها مستقرةً في نفوسهم، جُعلت كأنها شيءٌ تمكّنوا منه وعلوا عليه واستقروا عليه. ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: هدًى ناشئًا من الله عز وجل، على هدايةٍ من الله عز وجل.

«**أولئك الموصوفون بما ذُكر**»، أي بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

◆ سر تكرار ﴿أُولَٰئِكَ﴾:

القرآن ما قال: «أولئك على هدًى من ربهم والمفلحون»، ولو قال ذلك لاكتملت الجملة النحوية: «أولئك على هدًى من ربهم»، والواو عاطفة، و«المفلحون» معطوفٌ على قوله «على هدًى من ربهم»، يعني خبرٌ معطوفٌ على الخبر. لكن القرآن أعاد الإشارة: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ﴾، كرّر. انظر إلى القرآن، وإلى أسلوب القرآن، وإلى بلاغة القرآن، ولذلك القرآن معجز: «أولئك» كرّرها مرتين، مع أنه لو اكتفى بالأولى لصحّت الجملة من حيث النحو؛ لكن من حيث مراد القرآن لا يمكن أن تصح.

> **قاعدة**: لأن كل كلمةٍ في القرآن، وكل حرفٍ فيه، وإن سمّاه النحويون صلةً أو زائدة، أو يمكن للكلام أن يستغني عنه، فإنهم يريدون بذلك الصناعة النحوية، ولا يريدون المعنى؛ المعنى المراد لا يمكن أن يتم إلا بذلك اللفظ، سواء كان اسمًا أو كان حرفًا. ولذلك **لا زائد في القرآن من حيث المعنى**؛ لا يوجد شيءٌ في القرآن يسمى زائدًا من حيث المعنى. نعم، من حيث الصناعة يقولون: هذا حرفٌ زائد، وهذه كلمةٌ زائدة، إلى آخره.

والتكرار له شأنٌ عظيم، أشار إلى ذلك البلاغيون، ومنهم الزمخشري، له عباراتٌ جميلة في مسألة التكرار وفوائده البلاغية. **التكرار من فوائده تقرير المعنى وتثبيته في نفس السامع** لما تكرّر المعنى؛ ولذلك تجد هناك آياتٍ مكررة، وهناك كلماتٌ تتكرر في نفس السياق، لم تتكرر عبثًا. ولا تقل لي: إن «أولئك» الأولى تغني عن الثانية؛ لا تغني عنها، المعنى المراد لا تغني عنه الكلمة الأولى فقط.

ولذا قال لك: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ بمعنى أن هؤلاء الموصوفين هم على هدًى، وكذلك هم مفلحون؛ أي أنهم مجزيّون بالأمرين: مجزيّون بأنهم على هدًى، ومجزيّون بأنهم مفلحون، ولا يُكتفى بواحدٍ دون الآخر من الجزاءين؛ ولذلك لا بد من الإشارة مرتين: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

◆ معنى الفلاح:

الفلاح هو الفوز؛ و«المفلحون» أي «**الفائزون بالجنة، الناجون من النار**»، وهذا غاية الفوز. الإنسان يفوز في الدنيا بمطلوبه: يريد مالًا فيفوز به، يريد جاهًا، يريد نجاحًا، يريد كذا؛ لكن قمة الفوز هو يوم القيامة، عندما تدخل الجنة والله ينجيك من النار؛ هذا هو الفوز الحقيقي، وهو الفلاح. قال: «الفائزون بالجنة، الناجون من النار».

ثامنًا: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كأبي جهلٍ وأبي لهبٍ ونحوهما ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا، وتسهيلها، وإدخال ألفٍ بين المسهَّلة والأخرى، وتركه ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لعلم الله منهم ذلك، فلا تطمع في إيمانهم. والإنذار: إعلامٌ مع تخويف.

◆ تقسيم أول سورة البقرة الناسَ ثلاثة أقسام:

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. أنتم تعلمون أن المفسرين لاحظوا في بداية سورة البقرة أن هذه الآيات قسّمت البشرية، أو المكلفين، إلى ثلاثة أقسام: إلى **مؤمنين**، و**كافرين** كفرًا صريحًا صُراحًا، و**منافقين**.

بداية السورة تحدثت عن المؤمنين. وحتى المؤمنون بعض العلماء قسّمهم إلى قسمين: مؤمنو قريش، الذين خاطبهم النبي عليه الصلاة والسلام ونزل القرآن في زمنهم، ومؤمنو أهل الكتاب. فمن بداية السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه في مؤمني العرب، و﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هذه في مؤمني أهل الكتاب؛ لأن لهم كتبًا سابقة، ولما جاء القرآن الكريم آمنوا به. المهم أن أول السورة يتحدث عن فريقٍ هو المؤمنون.

الآيتان اللتان بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، هاتان الآيتان تتحدثان عن الكفار الصرحاء، الكفار الذين يُظهرون كفرهم كما يُبطنونه. وثلاث عشرة آيةً بعد ذلك تتحدث عن المنافقين.

◆ خطر النفاق:

وهذا يدل على خطورة المنافقين، وعلى خطورة النفاق؛ **النفاق أخطر من الكفر**؛ لأن الكافر هذا يأتيك وهو كافر، وبهذا تأخذ حذرك منه، وتأخذ حيطتك؛ لكن المنافق، الذي يأتيك بأنه مسلم وأنه مؤمن، يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر، هذا هو الخطير بلا شك؛ يدخل معكم، ويأكل معكم، ويشرب معكم، ويجلس مجالسكم الخاصة، ومؤتمراتكم، وكلامكم السري، ويأخذه وينقله إلى أعداء الإسلام. ولذلك لخطورتهم أسهب القرآن في ذكر صفاتهم، وضرب أمثالًا في بيان وإيضاح حقيقتهم الشنيعة.

◆ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾: في قومٍ بأعيانهم علم الله أنهم يموتون على الكفر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «كأبي جهلٍ وأبي لهبٍ ونحوهما» من كفار قريش، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. كيف ذلك؟ القرآن يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: إن هؤلاء، كأبي جهلٍ وأبي لهبٍ ونحوهما، ممن علم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر، هؤلاء أنذرتهم أم لم تنذرهم، الأمر عندهم سواء، بالنسبة لهم سواء؛ فكأنه يقال: لا تُتعب نفسك مع هؤلاء.

> **تنبيه:** وهذا لا يكون إلا بوحي. أنا وأنت لا نقول: إن الكافر الفلاني لا يؤمن، والكافر الفلاني كذا؛ لأن هذا غيب، أنت الواجب عليك أن تدعو كل الكفار؛ لأنك أنت لا يوحى إليك، وأنت لا تعلم الغيب. فالذي يختم الله عليه بالكفر فيموت كافرًا أنت لا تعلمه، والذي يختم الله عليه بالإيمان فيؤمن بعد قليل، أو في أواخر حياته، أنت لا تعلمه. ولذلك الواجب عليك أن تدعو الجميع، ولا تقل: إن هذا لأفعاله الشنيعة، وهذا قتل الناس، وهذا فعل كذا، هذا لا يؤمن؛ لا تتدخل في هذه الأمور.

في ناسٍ كانوا من أشد الناس عداوةً للمسلمين وللنبي عليه الصلاة والسلام، والله عز وجل لما علم أنهم يدخلون في الإسلام دخلوا في الإسلام، وكانوا من أشد الناس حبًّا لله ولرسوله ولهذا الدين، ودافعوا عن الإسلام؛ ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عمر بن الخطاب الفاروق، وهو ثاني الأمة بعد نبيها في الفضل، بعد أبي بكر رضي الله عنه؛ أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. وكان في الكفر شديدًا على المسلمين. لكن لا تعلم

الغيب؛ لا تقل: هذا لأنه كان يؤذي الناس بقوةٍ وشدة، وكذا، هذا أنا ما أظن يدخل في الإسلام؛ لا، قد يدخل في الإسلام ويكون أحسن منك، لا تدري.

ولكن هذه الآية وحيٌ من الله عز وجل، وبيّن ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام. منهم من قال: الآية تشمل كل الكفار، ومنهم من خصّصها، كالسيوطي رحمه الله، قال: «**كأبي جهلٍ وأبي لهبٍ ونحوهما**»، ممن علم الله عز وجل عدم إيمانهم، وأنهم يموتون على الكفر، من كفار قريش.

◆ القراءات في ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ إنذارك وعدم إنذارك: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾. المؤلف ذكر القراءات هنا في ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾: «أأنذرتهم» بهمزتين محقَّقتين بلا إدخال. **الإدخال** هو أن تأتي بألفٍ بين الهمزة الأولى والثانية، هذا يسمى الإدخال عند القراء.

هذا ذكره لك المؤلف هنا، قال: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ «**بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا، وتسهيل الثانية، وإدخال ألفٍ بين المسهَّلة والأخرى، وترك الإدخال**». هذه ذكرها المؤلف، قراءاتٌ سبعيةٌ متواترة.

◆ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خلاصةٌ لما قبلها، وفصلها عنه:

﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذه كأنها خلاصةٌ لقوله: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ سواءٌ عليهم إنذارك وعدم إنذارك، إذا كان إنذارك ودعوتك لهم، وعدم دعوتك لهم، إذا كان ذلك مستويًا بالنسبة لهم، فما نتيجة ذلك؟ أنهم لا يؤمنون. ولذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا يسمى عند علماء البلاغة **بالفصل**؛ هذا عندنا باب **الوصل والفصل** في علم البلاغة. هنا فُصلت الجملة الثانية عن الأولى لأسبابٍ ذكرها العلماء، لا نتعرض لها هنا.

المهم أن هذا الكلام في أناسٍ علم الله أنهم لا يؤمنون، وأنهم يموتون على الكفر. وهذا، كما قلت لك، أنت لا تعلمه، وأنت في هذا الزمان لا يجوز لك أن تتكلم بالأعيان: أن فلانًا وفلانًا وكذا، هذا يموت على الكفر؛ هذا الأمر ليس إليك. هنا الله عز وجل أعلم نبيه بها أولًا، وذكر له هذه القاعدة: أن من علم الله أنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن، وأن الإنذار وعدم الإنذار في حقه سواء.

◆ قوله «لعلم الله منهم ذلك، فلا تطمع في إيمانهم»:

قال: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، انظر ماذا قال المفسر، قال: «**لعلم الله منهم ذلك**»، أي عدم الإيمان، «**فلا تطمع في إيمانهم**»؛ فلا تطمع في إيمانهم يا محمد، أيها النبي، يا رسول الله. الله عز وجل أخبر نبيه، بيّن له جماعةً معيّنين، أخبره الله عز وجل بالوحي أن هؤلاء، أبا لهب، وأبا جهل، وعقبة بن أبي معيط، فلانًا فلانًا فلانًا، هؤلاء يا محمد لا تُتعب نفسك معهم، هؤلاء لا يؤمنون.

ولذا قال: «لعلم الله ذلك»، أي عدم الإيمان منهم، «فلا تطمع» يا محمد «في إيمانهم»، ولا تُتعب نفسك في إنذارهم، ولا تُتعب نفسك حسرةً على عدم إيمانهم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فلا تبخع نفسك، لا تُهلك نفسك من أجلهم.

◆ معنى الإنذار:

ثم ذكر لك فائدةً لغويةً لطيفة، من فوائد هذا الكتاب، قال: «**والإنذار إعلامٌ مع تخويف**». أقول لك: الإنذار؛ أنت لما تأتي وتقول لفلانٍ من الناس: انتبه، هناك خطر، هذا يسمى إنذارًا؛ لأنك أعلمته وخوّفته من ذلك الأمر المخوف. أما إذا أعلمته بشيءٍ بلا تخويف فإن هذا يسمى إعلامًا وإخبارًا. لكن متى يسمى إنذارًا؟ إذا كان إعلامًا مع تخويف.

ومنهم من أضاف: مع تخويفٍ يمكن الاحتراز منه؛ **الإنذار هو إعلامٌ مع تخويفٍ عن أمرٍ يتسع الوقت للاحتراز منه**. فهمت هذا الكلام؟ الآن مثلًا هذا الأسد في وجه فلانٍ من الناس، هو خلفه، وهو لم يره، فلمّا تقول له: الأسد خلفك، هذا لا يسمى إنذارًا؛ لأن بعد قولك هذا ليس هناك وقت، وليس هناك متسعٌ للاحتراز من هذا الأمر الذي خوّفته منه، فهذا لا يسمى إنذارًا.

لكن عندما تنذر، عندما تخبره بأن هذا الطريق الذي أتى يسلكه الآن أمامك فيه خطورة، فيه مثلًا حيواناتٌ مفترسة، فيه أسود، فيه كذا، هذا يسمى إنذارًا؛ لأن هناك متسعًا للاحتراز منه، يمكن الرجل يترك هذا الطريق ويسلك طريقًا آخر. انظر، هذا كلامٌ جميل. ولذا قالوا: الإنذار هو إعلامٌ مع تخويف، في وقتٍ يتسع للاحتراز من ذلك الشيء المخوف منه. والمؤلف، المهم، اقتصر على قوله: «والإنذار إعلامٌ مع تخويف».

﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ أي خوّفتهم، أعلمتهم: أعلمتَ هؤلاء الكفار بما يجب عليهم، وخوّفتهم بالنار، وخوّفتهم بأن عقوبة الكفر سخط الله عز وجل، وبأنها دخول النار؛ فهذا لا ينفعهم، سواءٌ فعلته أو لم تفعله؛ لأن الله علم بأنهم لا ينتفعون. هذا يسمى إنذارًا.

تاسعًا: قوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

قال الجلال السيوطي رحمه الله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طبع عليها واستوثق، فلا يدخلها خير ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي مواضعه، فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ غطاء، فلا يبصرون الحق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قويٌّ دائم.

◆ الآية كالتعليل لعدم إيمانهم:

ثم قال رحمه الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. لماذا استوى عندهم الإنذار وعدمه؟ ولماذا لا يؤمنون؟ قال: لأن... هذا **كالتعليل لعدم إيمانهم**؛ ما علة عدم إيمانهم؟ لأن الله ختم على قلوبهم.

◆ معنى الختم، واستعارة الختم الحسي للمنع المعنوي:

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾: الختم في الأصل هو شيءٌ يوضع على أمرٍ حسي لينهيه، وليجعله لا يمكن أن يضاف إليه شيء؛ كالختم الذي يوضع في آخر الرسالة. إذا كنت إنسانًا مسؤولًا، أو أميرًا، أو ملكًا، تكتب رسالةً إلى جهةٍ ما، وفي النهاية تختم، تضع عليها ختمًا أو توقيعًا؛ بمعنى أنه لا يمكن لأحدٍ بعد ذلك أن يأتي ويضيف. الختم هذا يمنع من دخول شيءٍ من الخارج إلى هذا المختوم.

ختم على قلوبهم: «**طبع عليها**»، بحيث لا يمكن أن يدخلها الإيمان، ولا يمكن أن يتجاوز الإيمانُ هذا الختمَ إلى قلوبهم. والطبع، كما قلنا، هو في الأصل يكون للأمور المحسوسة: أن تطبع على شيء، وأن تقوّي أمر هذا الشيء، بحيث لا يمكن أن يضاف إليه شيءٌ آخر؛ **فاستُعير هذا الختم الحسي للختم المعنوي**، أي للمنع المعنوي. الختم الحسي يمنع من إضافة شيءٍ على هذا المختوم، كذلك الختم هنا يراد به المنع من دخول الهدى والإيمان إلى قلوبهم.

◆ معنى «واستوثق»:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: «**طبع عليها واستوثق**»، أي قوّى. «استوثق» من: وُثُق الشيء وثاقةً، أي قوي واشتد. يعني: طبع عليها، ختم عليها، وقوّى هذا الطبع، بحيث لا يمكن بأي حيلةٍ أن يدخل الإيمان إليها. ولذا يكون النبي ﷺ يؤيَّس: لا تُتعب نفسك، هؤلاء خُتم على قلوبهم، ووُثّق هذا الختم؛ ولذلك إنذارك وعدم إنذارك لا ينفع مع هؤلاء.

قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طبع عليها واستوثق، «**فلا يدخلها خير**»، كما أن الرسالة المختومة لا تدخلها إضافةٌ بعد ذلك.

◆ لماذا أُفرد ﴿سَمْعِهِمْ﴾؟ مجازٌ مرسل علاقته الحالّيّة:

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾: انظر، قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، و«قلوب» جمعٌ مفرده «قلب»، ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾، «أبصار» جمعٌ مفرده «بصر»، و﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ ما قال: «أسماعهم»؛ جمع ما قبل السمع وما بعده، وأفرد السمع. انظر ماذا قال: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي ختم كذلك على سمعهم، ماذا قال؟ «**أي مواضعه**»، أي الآذان.

القلوب شيءٌ محسوس، جمع «قلب». والقلب هذه المادة التي ذكر النبي ﷺ أنها إذا صلحت صلح الجسد كله، يعني قطعة لحمٍ موجودةٌ في البدن، قطعةٌ صنوبرية كما يقال. ومنهم من قال كلامًا، هذا نحن ما نتكلم فيه كثيرًا؛ لأنها أحيانًا تدخله الفلسفة وكذا: القلب هل هو تلك المضغة، أو هو شيءٌ آخر في تلك المضغة؟ يعني هذا كلامٌ ما يهمنا الآن؛ لكن المهم: القلب شيءٌ محسوس؛ فلانٌ له قلب، وهذا له قلب، ومئةٌ، مئة ألف، ألفان، مليون، كل واحدٍ له قلب؛ هذه كلها تُجمع على «قلوب». كذلك الأبصار جمع «بصر»، البصر كذلك الذي يُبصر به، هذا الشيء، المادة التي يُبصر بها، أيضًا شيءٌ محسوس.

أما السمع فليس محسوسًا؛ موضعه الأذن، الأذن هي المحسوسة، الأذن هي التي تقابل القلب، وتقابل كذلك البصر؛ لكن عبّر بالسمع، و**السمع، كما تعلم، هو مصدرٌ أيضًا**: سمع يسمع سمعًا. ولذلك المؤلف ذكر أن إفراد السمع يراد به أيضًا **المجاز، حيث إنه ذكر الحالّ وأريد المحلّ**، وهذا أيضًا من علاقات المجاز المرسل: ختم على سمعهم، أي ختم على آذانهم. ولذا قال: «مواضعه»، أي مواضع السمع، ومواضع السمع هي الآذان. قال: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أي مواضعه، أي مواضع السمع، ختم عليها.

> **منهج الشيخ في الدرس**: طبعًا هناك... نحن نتقيّد بكلام الجلالين، ولا نذكر كلام المفسرين الآخرين، والمسائل والخلافات التي ذكروها، أو الأقوال التي ذكروها في المسألة الواحدة؛ لأن هذا لو بدأنا نتشعب ونذكر ما قاله ابن كثير، وما قاله الطبري، وما قاله فلان، وما قاله فلان، في المسألة الواحدة، ما نفعل شيئًا. نتقيّد بكلام المؤلفَين. منهم من قال: «السمع» هذا مصدر، والمصادر لا تُجمع؛ لكن ما لنا علاقةٌ بهذا. المؤلف يقول: أُفرد السمع وأريد به مواضع السمع.

أي: ومواضعهم، «**فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق**». ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ فلا يدخلها إيمان، وعلى مواضع سمعهم فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق.

◆ ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾:

﴿**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ أي «**غطاء**». هم في الحس يبصرون، ولكن في الحقيقة أنهم لا ينتفعون ببصرهم هذا؛ ولذلك كأنه غُطّيت أبصارهم بغطاء. الغشاوة هي الغطاء؛ قال: ﴿**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ أي غطاء، «**فلا يبصرون الحق**».

ولذلك لا تُتعب نفسك معهم، لا تبخع نفسك معهم: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ**﴾، لا تُتعب نفسك، لا يؤمنون، أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا يمكن أن يهتدوا.

◆ وصف العذاب بالعظيم:

قال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، لهم عذابٌ عظيم، أي «**قويٌّ دائم**». انظر، المؤلف أيضًا أشار إلى مسألة، وهي أن **العِظَم في الأصل وصفٌ للأعيان**، أي الأشياء المحسوسة؛ تقول: هذا جبلٌ عظيم، وهذا قصرٌ عظيم. لكن هنا وُصف المعنى، وهو العذاب؛ العذاب ليس قصرًا، وليس جبلًا، وليس شجرة؛ ولذلك فسّره بقوله: المراد بـ«عظيم» هنا أنه **قوي**، عذابٌ قويٌّ شديد، **ومستمرٌّ دائم**.

هذه كلها إشاراتٌ من المؤلف: فوائد لغوية، وفوائد بلاغية، وفوائد نحوية، إلى آخره. قال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ قويٌّ دائم.

خاتمة المجلس:

ثم قال: «**ونزل في المنافقين**». هذه الآيات السابقة، الأولى كما قلنا نزلت في المؤمنين، وهاتان الآيتان نزلتا في الكافرين؛ ثم ذكرت الآيات بعد ذلك المنافقين وأحوالهم، وذلك يبدأ من قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، إلى هذه ثلاث عشرة آية، كلها في المنافقين، ثم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾.

ونقف هنا إن شاء الله تعالى، وإن شاء الله في المجلس القادم نقرأ ما ذكره الإمام السيوطي رحمه الله في تفسيره الجليل في هذه المسائل، بإذن الله.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وأسأل الله عز وجل أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وجزاكم الله خيرًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.